الأدب الجاهلی بین البیئتین الطبیعیة والاجتماعیة

مهدی ممتحن*

الملخص

الشعر هو الذی یشهد علی أثر خالقه وصوره الزمینة والمکانیة. فالشاعر لم یقدر علی أن یبتعد عن مجتمعه وبیئته الاجتماعیة والطبیعیة وهو جزء منها، لأنه عاش معها مادامت بجانبه، وهو لسان القبیلة والملوک وهو الذی یدافع عن قبیلته أمام القبائل الأخری ویحتمل أعمالها فی جمیع الأمور وفی الترحال والسفر ویستأنس بجبال الأرض التی یعیش فیها ویتلذذ من صحراءها وبحارها ووادیانها فی طبیعیته، ولذلک کان الشاعر یعتبر عند العرب فی العصر الجاهلی رئیس القبیلة وأمیرها، ولم یکن لهم علم أصحُ منه، کما کان ذا معرفة بالأنساب ومعالیالأخلاق، ولیست مهمته کالمؤرخ بل أهم منه وهو مخزون من حیث المعارف ولذا قیل: إنّ الشعر الجاهلی لم یسمُ إلی الذروة العلیا التی بلغها الشاعر إلا لکونه صادقاً لبیئته الجاهلیة.

الکلمات الدلیلیة: الشعر الجاهلی، الطبیعة، الزواج، البحار، المثقب العبدی.

*. أستاذ مشارک بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت (دانشیار دانشگاه آزاد اسلامی واحد جیرفت).

تاریخ الوصول: ۱۳۸۸/۳/۱۲هـ. ش تاریخ القبول: ۱۳۸۸/۵/۲۵هـ. ش

الشعر وتأثيره على البيئة

إن الشعر كما قاله ابن سلام يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب. (الجمحى، ١٩١٣م، ج١: ٢٤) والفارابى يعتقد بأن: «الأقاويل الشعرية هى التى تؤلف من أشياء محاكية للأمد الذى فيه القول أو أنها توقع فى ذهن السامعين المحاكى للشىء.» (الروبى، لاتا: ٧١)

فالشعر صورة فنية موازية لحياة أصحابه وبئيتهم وهى تختزن فى عباراتها أفكارهم وعاداتهم وأنسابهم ومشاعرهم فى كل زمان.

فالشعر الجاهلى هو الذى يحكى عن بيئة الشاعر وقبيلته، لأن الأرض التى يعيش فيه هو موطنه، والأحداث التى تجرى فيها هى خواطر وذكريات مشاعره ولهذا نحن عندما نسمع كلمات الشاعر التى تغنى بالبيئة نحسّ كلَّ شىء عن طبيعيته ومجتمعه ونشهد التجربة التى مر بها الشاعر ونقلها إلينا فى صوره واقعا فنياً وفكرياً بأى شكلٍ كان.

فمن ذلک نرى الشعراء إذا صعب عليهم إنشاد الشعر، انفردوا فى حياتهم، وأخذوا يسيرون فى شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة حتى يصبحوا قادرين على إنشاد الشعر. فمن هؤلاء نرى امرءالقيس من الشعراء الجاهليين والفرزوق من الشعراء الأمويين كانوا ينزحون مِن مكان إلى آخر ويحلون فيها كى يصوروا مشاهداتهم للبيئتين الصامتة والمتحركة، ولذلک نرى الشعراء غالباً يذكرون الرحيل والترحال والانتقال وتوقع البين والأشفاق منه وصفة الطلول والحمول والتشوق بحنين الإبل، ولمع البروق ومرّ النسيم وذكر المياه التى يلتقون عليها والرياض التى يحلون بها (القيروانى، ٢٠٠٤م: ٢٢٥). فالبيئة هى منبع الإلهام الشعرى ومحملاً لجملة من الأفكار والمشاعر.

فنرى المسيب بن علس البكرى والمتلمس وعبيد بن الأبرص الأسدى قد عاشوا فى مناطق بحرية وبرية ولم ينسوا ما أولاه هناک مِن آثار وترحال كما عاش طرفة بن العبد فى البحرين وبها دفن وأنشد ما رآه فى بيئته. (محمد شاكر، ١٩٦٤م، ج١: ١٧٤)

الشعر الجاهلى وتأثيره على البيئتين الاجتماعية والعائلية

إن البيئة الجاهلية هيمنت على مشاعر البدوى وأفكاره وتدخلت فى تكوينها وصياغتها حسب ما تقتضيه، ودفعت به إلى حياة تنسجم مع ما تفرضه عليه، فكان منفعلاً معها، فعاداته وقيمه مصوغة على ما قدمته فى البرّ والبحر وفى مجتمعه ولذلک نراه منفرداً فى بعض خصائصه بين القبائل الأخرى منها:

الزواج وتأثيره فى البيئة الجاهلية

كان الزواج يعتمد على أحد مِن الأنواع الثلاثة فى الجاهلية وهو زواج المقت وزواج الأخيذة وزواج الاستبضاع.

فأما زواج المقت فهو أن الإبن كان يرث زوج الأب المتوفى، فيتخذها زوجاً له، أو يعقلها حتى تموت، أو ترد إليه صداقها، وللوارث أن يفعل ذلک بزوج المتوفى، إذا القى عليها ثوبه قبل أن تذهب إلى أهلها. (هبو، ١٩٨٠م: ٥٣٤)

وقد عده أوس بن حجر التميمى نكاحاً منافياً لخصوصية المجتمع الجاهلى فأخذ يهجو قوماً قائلاً:

gÀÒÄŋ Kd ĮŦŦz ĞŒèøÌÀäöŞ فكلّهم لأبيه ضيزَنٌ[1] سَلفُ

(المصدر نفسه: ٥٣٦)

فالاتفاق بين أكثر الأدباء والقبائل الجاهلية هو أن زواج المقت مبنىٌ على الإكراه وليس فى الشعر الجاهلى ما يدل على متانة العلاقة بين طرفى زواج المقت فإنّ زواج المقت فيه استهانةٌ بمشاعرِ الزوجية، فلا خطبة فيه ولا مهر.

زواج الأخيذة[2]: أما زواج الأخيذة فهى سبيةٌ صريحة النسب، يتخذها آسرها زوجةً له أو يجعلها زوجة أقربائه، فالأخيذة تكره على الزواج بغير خطبةٍ ولا مهر ومن الشعر الدال على ذلک قول الحطئية يمدح ابن حصن الفرازى قائلاً:

١. الضيزن الذى يزاحم أباه فى امرأته وقوله سلف يقول الرجل منهم يأتى أمه وخالته فهو ضيزن لأبيه بالأم وسلف له بالخالة ويروى والفارسية فيكم غير منكرة يخاطبهم بذلک والسلف زوج أخت امرأة الرجل يقال هو سلفه وظأمه وظأبه.

٢. الأخيذه هى المرأة الأسيرة.

وبَكرٍ فلاها من نعيم غريرة[1] مصاحبةٍ على الكراهين فاركِ
يقلن لها لاتجرعى أنَّ تبدَّ لى بأهلكِ أهلاً والخطوب كذلكِ

(الحطيئة، ١٩٨٧: ١٢٣)

إن المديح السابق يُبين كراهة الأخيذة لمن تجبر على مصاحبته، فهى مكرهة على أن تستبدل بأهلها أهل آسرها وهذه من خطوب الحياة الجاهلية القاسية وزواج الأخيذة يمنحها حقوق زوجة البعولة عدا حق الحرية فى مفارقة زوجها فهى مكرّمة ومنعمة، تحتلط بنساء قبيلة زوجها وآسرها وكأنها واحدة منهن ونسبت إلى حاتم الطائى أبيات واضحة الدلالة على ذلك منها قوله:

وما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلةً ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا
ولكن خلطناها بخير نساءنا فجاءت بهم بيضاً وجوههم زهرا
وكائن ترى فينا من أبى سبيّةٍ إذا لقى الأبطال يطعنهم شزرا

(الطائى، ١٩٩٠م: ٢٨٣)

أما زواج الاستبضاع، فهو نوع غريب من الزواج، وهو أن تقدم المرأة أو تجبر عليه طلباً لنجابة الولد، فتستطرق رجلاً قوياً شجاعاً كريماً غير بعلها، أملاً فى إنجاب ولدٍ مثله وهذا النوع من الزواج لم يكن شائعاً بين القبائل الجاهلية فكما يُقال إن أخت لقمان كانت تلد لزوجها أولادا ضعافاً، فاحتالت على أخيها لقمان فأسكرته واندست له، وقيل إنها ولدت منه ولداً سمّته لُقَيْمَاً، وكان أحزم الناس، وذلك فى قول النمر:

لُقيمُ بن لقمان مِن أخته فكان ابن أختٍ له وابنما
ليالى حُمق فاستحصنت إليه فَغرّ بها مُظلما
فأحبلها رجل نابة فجاءت به رجلاً مُحْكما

(النمر بن تولب، ١٩٦٩م: ١٠٦)

١. الغريرة هى التى لم تجرّب شيئاً.

و مِن بيت للخَنساء، قولا فى رثاء أخيها:

لكنّ أخى أروع ذو مُرّةٍ مِن مثلة تستبضعُ الباغية

(الخنساء، ١٩٨٦م: ٣٢٢)

إنجاب الأبناء ورعايتهم فى البيئة الجاهلية

إن لزواج البعولة غاية رئيسة محدّدة، وهى المحافظة على استمرار الوجود الإنسانى بالإنجاب، ولما كان المجتمع الجاهلى مقروناً بالصراعات، فقد حرصوا على إنجاب الأبناء الأقوياء وعلى تربيتهم تربية كاملة فى جسد قوى يستطيع الإبن أن يقابل العدو بكلّ قدرة، ويتحدى الطبيعة القاسية، ومن أجل ذلک كان البعل يختار ذات الحسب والنسب ليقرن بها لاعتقاده بقدرتها على توريث القوة الجسدية والبدنية لأبنائها وعلى تربيته يتمثلون بها قيم مجتمعهم ويتلو اختيار الزوجة الوقت المناسب للحمل، فقد اعتقد الجاهليون أن الزوجة إذا حملت وهى فزعة ومكرهة على طرق بعلها إياها فجاءت بغلامٍ لا يطاق، ومن جيّد الشعر على ذلک قول أبى كبير الهذلى يصف صاحباً له:

و لقد سريتُ على الظلام بمغشم جلدٍ مِن الفتيان غير مُهبَل
فما حملن به وهُنَّ عواقدٌ حُبُک الثياب فشد غير مُثقَّلِ
حملت به فى ليلةٍ مزؤودةٍ كَرُهَاً وعقد نطاقها لم يُحلَلِ
فأتت به حوش الجنان مُبطَّناً سُهُدَاً إذا ما نامَ ليلُ الهَوجلِ

(السكرى، ١٩٦٥م: ١٠٧٣)

ثمّ يُضيف أبوكبير صفات أخرى تلزم الاستكمال قوة المولود الجسدية قائلاً:

ومُبرّأ مِن كلّ غيرِ حيضةٍ وفسادُ مرضعةٍ وداءٍ ŌɆ8ɱ

ويبين السكّرى شرح البيت السابق أنّ الأم لم تحمل على مولودها، فتسقيه الغيل[1] وأنّه لم يُصب بداءٍ شديدٍ معضل، فالأسرة الزواجية تنزع إلى إنجاب الأبناء الأقوياء باختيار أسلوب الحمل المناسب وبتغذية المولود بلبنٍ اعتقدت بلزومه لصحة الأبناء.

١. الغيل هو اللبن الذى ترضعه المرأة ولدها.

وكانت الأسرة الزواجية تطمع إلى أن يشّب أبناؤها على مثال ترتضيه وفى هذا الأمر ما قالته الشعراء منهم قول هند بنت عتبة و هى ترقّص ابنها معاوية:

إنّ بنى مُعرِقٌ كريمُ مُحَبّبٌ فى أهلهِ حليمُ
ليسَ بفحاش ولا لئيم ولا بطخرورٍ ولاسؤوم
صخر بنى فهرٍ به زعيم لا يخلف الظن ولا يَخِيمُ

(القالى، لاتا، ج٢: ١١٦)

وشبيه ذلک أبيات لصفية بنت عبدالمطلب فى ابنها الزبير بن العوام، تبين فيها أنها تُحسِنُ تربيةَ ابنها وأنها تُقدم على ضربه ليعقل وليشب رجلاً جواداً شجاعاً. (المصعب الزبيرى، ١٩٨٥م: ٢٣٠)

وزعمت أم عمرو بن كلثوم التغلبى أنها ولدت غلاماً وسمته عمراً، فلّما أتت عليه سنة، قالت أتانى ذلک الآتى فى الليل أعرفه، فأشار إلى الصبى وقال:

إنى زعيمٌ لکِ أمَّ عمرو بما جد الجدّ كريم النجرِ
أشجَع مِن ذى لِبَدٍ هِزَبرِ وَقَّاصِ أقرانٍ شديدِ الأسرِ
يسودهم فى خمسةٍ وعَشرِ

(الاصفهانى، لاتا، ج١١: ٤٠)

فقال الأخذر لقد ساد وهو ابن خمسة عشر ومات وله مائة وخمسون سنة.

نشأة الأولاد والبنات

مِن الأمور المهمة فى نشأةِ الأطفال وتربيتهم أن الأعراب فى الجاهلية كانوا يهتمون بالأبناء الذكور دون الإناث، ولم يذكر الشعر الجاهلى هذا الأمر إلا فى قول أمية بن أبى الصلت وهو يعاتب ابنه قائلاً:

غذوتکَ مولوداً وعُلتُک يافعاً تُعَلُّ بما أدنى عليکَ وتنهلُ
إذا ليلةٌ نابتک بالشكو لم أبت لشكواک إلا ساهراً أتململُ
كأنى أنا المطروق دونک بالذى طرقت به دونى وعينى تُهملُ

تخافُ الردى نفسى عليكَ وإنّها لتعلم بأنّ الموت حتمٌ مؤجلُ

(أمية بن أبى الصلت، لاتا: ۴۳۰)

ولقد صور الأعشى تعلّق البنات بالآباء حين يزمعون الرحيل، فها هى ابنته تنظر إليه، وقد رأفت لحظة ارتحاله، فتدعو ربّها أن يحفظ والدها مِن الأوجاع والآلام، وكانت قد بذلت جهدها لتمنع أباها عن‌الارتحال، ولكنّ مطالب الحياة كانت أقوى مِن العواطف، فارتَحَل الأب، وهو يدعو لابنته تحمل ما دعت له، ويوصيها بأن تستخبر عنه وتنتظر إيابه وأنشد حول هذا قائلاً:

تقول بنتى وقد قرّبتُ مرتحلا يا ربِّ جنِّب أبى الأوصاب والوجعا
واستشفعتْ مِن سراة الحى ذا شرفٍ فقد عصاها أبوها والذى شفعا
مهلاً بُنَىَّ فإنّ المرءَ يبعثه هَمٌّ إذا خالط الحيزوم والضِّلعا
كونى كمثل التى إن غاب وافدها أهدت له من بعيد نظرةً جزعا
ولاتكونى كمن لا يرتجى أوباً لذى اغترابٍ ولا يرجو له رجعا

(الأعشى، ۱۹۹۲م: ۱۹۹)

البيئة الطبيعية وأهميتها فى الشعر الجاهلى

إنّ الظواهر الاجتماعية والفكرية التى صاغتها البيئة الطبيعية لبلاد العرب فى إطارها المناسب كظاهرة الكرم والفروسية وحماية الظعائن والمرأة والمحافظة على النسب والشرف وإغاثة الملهوف ونصرة الضعيف وذم البخل واللؤم والجبن والفرار وغيرها كانت من العادات المألوفة عند البدوى. (طرّاد، لاتا: ۷۵)

فإن أهمّ ظاهرةٍ فرضتها البيئة على حياة الأعراب هى ظاهرة النُجعة وكان الأعراب ينتقلون من محاضرهم التى اتخذوها وطناً إلى منازل بالبادية تسعة أشهر طلباً للكلأ والماء، وكانت رحلتهم تبدأ نحو الرابع عشر من آب أو أغسطس. (ابن قتيبة، ۱۳۵۶ق: ۱۰۰)

فالقبائل العربية كانت تنزل من تلك المناطق فى أضلاطٍ شتى فى الشعر الجاهلى

والمقدمة الطللية هی أكثر مقاطع القصيدة الجاهلية دلالةً على مدى تأثير البيئة البدوية وبرز هذا التأثير واضحاً فی وحدة العادات والتقاليد والقيم واللغة والثّقافه والمشاعر كما تحدث عند المثقب العبدی.[1] (فروخ، ۱۹۸۴م، ج۱: ۶۰)

أفاطم قبلَ بينكِ متعينی ومنعک ماسألت كأن تبينی
فقلت لبعضهن وشدّ رحلی لهاجرةٍ نصبتُ لها جبينی
إذا ما قمتُ أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين
أكلّ الدهر حلٌّ وارتحالٌ؟ أما يُبقی علیَّ وما يقينی

فنری المثقب العبدی فی أبياتٍ أخری يستبشر ناقته على أنّها ستصل إلى مناجع جديدة فيها العشب والكلأ والماء، فهو فی سباق مع الزمن، ليتهلل بمرأى الضيف ويسرع ليختار أحسَن إبله لينحرها قائلاً:

فلما أتانی والسماء تبلّه تقول له أهلاً وسهلاً ومرحبا
وقمتُ إلى البرک الهواجد فاتقت بكوماء لم يترک لها النیّ مهربا

(المثقب العبدی، ۱۹۷۱م: ۱۹۵۶)

فشدة الريح وهطول المطر زادت من إصرار المثقب على إكرام ضيفه، وكان العربی البدوی لا يبخل بما عنده على ضيفه، وفيه يختار احترام الجار وحفظ حرمته ويفتخر بنفسه فی هذه الأحوال منتشراً. (فروخ، ۱۹۸۴م: ۱۶۲)

لا تقولن إذا ما لم ترِد أن تُتمّ الوعد فی شیء «نعم»
حَسنٌ قولُ «نعم» مِن بعد «لا» و قبيحٌ قول «لا» بعد «نعم»
إنّ «لا» بعد «نعم» فاحشةٌ فبـ «لا» ابدأ إذا خفتَ النَّدَم
لا يُبالی طيّب النفس به تلفُ المال إذا الحر فی سَلَم

۱. المثقب العبدی، هو أبو عمرو بن ربيعة بن نزار وكانت مساكن قومه فی البحرين. كانت وفاته عام (۳۵هـ ـ ۵۸۷ م) وهو أقدم من النابغة. المثقب شاعر مجيد، غريب الألفاظ، متين التراكيب جدّا وأعراض شعره يدور على المدح والفخر والحكمة والطرد ووصف الراحلة، له قصيدةٌ بارعة مدحها ابن سلام، وقال ابن قتيبة كان أبو عمرو يستجيد هذه القصيدة ولوجب على الناس أن يتعلموه والقصيدة طويلة. (فروخ، ۱۹۸۴م، ج۱: ۱۶۰)

أكرم الجارَ وارعى حقّه إن عرفان الفتى الحقّ كرم
اجعل المال لعرضى جُنةً إنّ خير المال ما أدى الذّمم

فهذه هى صورة فنية لأحد شعراء الجاهلية يبيّن فيها بيئته الاجتماعية فى تنمية ظاهرة الكرم وتعزيزها فى النفوس، وتوحى هذه الصورة بأن الحياة اجتماعية غير منفردة، ولقلة الموارد الطبيعية والمائية أباحَ فى شريعتهم الغزو والسلب، وافتخر بذلك كثيرٌ من شعراء الجاهلية بهذه الصفة، فكلّ واحدٍ منهم يصفُ فروستيه وانتصاره على خصمه و لو جَبن أو ضعُف لنالَ منه خصمه كما يقول بعض الشعراء:

فلم أنكل و لم أجبن ولكن شددت على أبى عمرو بن عمرو
تركتُ الرمحَ يبرقُ فى صلاه كأن سنانه خرطوم نسرِ

(الضبى، لاتا: ٧١)

فهو يؤكد على فروسيته ويفتخر بقومه وينصرهم على عدو قوى وشديد يديمُ فى قوله قائلاً:

فأنک لو رأيت غداة جئنا ببطن أثالَ ضاحية نسوقُ
مشينا شطرنهم ومشوا إلينا وقلنا اليوم ما تقضى الحقوق

الخيل ذو أهميته فى البئية الطبيعية

إن الخيل هو حصن العربى ودرعه فى حياته يحتمى من ضربات السيوف وطعنات الرماح، ولهذا نرى الأصيل العتيق كان يصنع له شجرة أنساب ولاعيب للعربى فى أن يؤثره على نفسه وأهله فى أوقات العسرة، وكانت العرب تهنئ بعضها البعض بنتاجها، وأخذ كلّ منهم يصف فرسه فى حالة خاصة منها وصف امرىء القيس منشداً:

وقد أغتدى، والطير فى وكناتها بمنجردٍ، قيد الأوابد هيكل
مكرٍّ، مفرٍّ، مُقبل، مُدبر، معا كجلمود صخرٍ حطّه السيل مِن عَلِ
كُميتٍ،يزِلّ اللبدَ عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل
له أيطلا ظبى وساقا نعامةٍ وإرخاء سِرحان، وتقريبُ تتفُلِ

كأنّ دماءَ الهاديات بنحره عصارة حنّاءٍ بشيبٍ مُرَجّلِ
فعادى عداءً بينِ ثورٍ ونعجةٍ دراكا ولم ينضح بماءٍ فيغسلِ
فبات عليه سَرجه ولجامه وبات بعينى قائماً، غير مُرسَلِ

(شيخو، لاتا، ج ١: ٣٦)

ويصف شاعرٌ آخرٌ فرسه وهو طرفة بن البعد وصفاً جميلاً ورائعاً بقوله مُنشداً:

و هم ما هم، إذا ما لبسوا نسج داود لبأس محتضر
وتساقى القوم كأساً مرةً وعلا الخيل دماءٌ كالشَّقر

ويصفها آخر وهو عنترة بن شداد ويفتخر بفرسه وخيله بشكل آخر وهى من صفات البيئة الطبيعية التى يعيش فيها البدوى والحضرى قائلاً. (المصدر نفسه: ٧٠)

والخيلُ تقتحم الخبارَ عوابساً مِن بين شيظمة وأجرد شيظمِ
ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تدر للحرب دائرةٌ على ابنى ضمضمِ

يُريد به أن ذلک كان فى وقتٍ تجرى خيلنا الطويلة العليلة الشعر الكالحة الوجوه فى أرض رخوة فيها قوائمها، فتسير بصعوبة. (المصدر نفسه: ١٦١)

البيئة الطبيعية البرّية

الف ـ البيئة الصامتة

كان الشعراء الجاهليون يتحدثون عنالطبيعة الصامة والمتحركة بجبالها وسهولها وحرّها ومطرها ومواقعها وشجرها ونباتاتها، فأينما لاحت لهم صورة ممتزجة بحياتهم ومشاعرهم جعلوها مادة لغتهم، فتأثروا بها. والشاعر الجاهلى كان يتغنى ببيئته الطبيعية ويسوق ذلک فى إطار هدفه الذى يسعى إليه فى موضوعات قصيدته ولهذا حفلت المقدمات الطللية ومشاهد الرحلة والحيوان خاصةً بصور كثيرة ومثيرة للبيئة الطبيعية، فالشاعر يسوق فى سرد تبتغى رحلة الضعائن من موضع إلى موضع آخر وهى تصعد ربوة أو تغيب فى واد فينخلع قلبه من جنبه ظناً به أنه لم يرها بعد، فعينه تظلّ ترصد مرورها كما يقول زهير بن أبى سلمى فى معلقته:

تبصّر خليليّ، هل ترى مِن ضعائنٍ تحمّلن بالعلياء مِن فوق جُرثُم؟
علونَ بأنماطٍ عتاقٍ و كِلَّةٍ وراد حواشيها، مشاكهة الدمِ
جعلن القنان عن يمينٍ وحزنه وكم بالقنان مِن مُحلٍّ ومُحرِمِ

(شيخو، لاتا، ج١: ٨٤)

أمّا الحديث عن الحرّ والقرّ فلم يكن طويلاً ولا مقصوداً لذاته والعكس عند قصيدة الشنفرى حين يقول:

ويوم من الشعرى، يذوبُ لعابُه أفاعيه، فى رمضائه، تتململُ
نصبتُ له وجهى، ولا كِنَّ دونَه ولا سِترَ إلاّ الأتخميُّ المرعبلُ

(المصدر نفسه: ١١)

والشعرى هو كوكب فى الجوزاء فى ليالى الحرّ، واللعاب ما نراه فى شدة الحرّ، مثل نسج العنكبوت، والرمضاء الأرض الحارة من وقع الشمس عليها ويقول فى البيتين: ورُبَّ يوم مِن الأيام التى تطلع فيه الشعرى، وكان قد اشتد فيه الحرّ وثارت على الأرض هبوات النار حتى لاتكاد الأفاعى تستقرّ على رمضائه لشدةِ حرارتها، كنتُ أنصبُ وجهى لأشعة الشمس، ولا يسترنى عنها سترٌ ولا وقاية إلا بُردٌ خَلِقٌ. (الشنفرى،١٩٩٣م: ٦٢)

والوصف الذى يذكر فيه المطر والبرق والرعد لم يكن على المستوى الفنى الذى لدى بعض الجاهلين، كامرئ القيس مثلاً حين يقول:

أصاحِ ترى برقاً أريک وميضه كلمع اليدينِ فى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
على قطنٍ، بالبشيم، أيمنُ صوته وأيسره على الستار، فيذبُلِ
ومرّ على القنان مِن نفيانه فأنزل منه العُصم مِن كلّ منزلِ

(شيخو، لاتا، ج١: ٣٩)

وهناک ثعلبة بن عمرو يصوّر لنا درعاً متلألئةً فيقتنص من صورة الغدير الذى ضربته الريح مثلاً لذلک وأضافَ صورةً أخرى حين جعل السماء تدفع بشآبيب الغيث فى وقت الصيف، وقدأ برز لآلئ الماء هبوب الريح عليه كما يقول:

ببيضاء مثل النِّهيِ ريح ومدّه شآبيب غيث يحفش الأكم صائف

(الضبى، لاتا: ٢٨٢)

ب ـ البئية المتحركة

دخلت صورة البيئة المتحركة والحية فى نسيج الحياة الجاهلية، فشكلت أثراً واقعياً وفنياً، وأخذت تشمل ما كان فى الحركة فى حياته من الإبل والأنغام والخيل والمطر والبرق... إلخ.

فالبيئة الطبيعية الحية والجامدة، لم تكن عند الشاعر هدفاً لذاته ولا أصلاً لسواه من الأهداف كما توهَّم بعض الباحثين.

فالشعراء الجاهليون استطاعوا أن ينقلوا بأصالةٍ ودقةٍ وبراعة تفاعلهم الخلاق مع بيئتهم القديم والجديدة ونجحوا فى تحميل ناقتهم لطلب النجعة. فالشعراء كلّهم إن كانوا من شبه جزيرة العرب أو من الخليج الفارسى فقد أبدعوا الواقع الفنى من صميم الواقع الطبيعى لقول المثقب العبدى:

أجدّك ما يدريک أنْ رُبّ بلدةٍ ... إذا الشمسُ فى الأيام طال ركودُها
وصاحت صواديح النهار وأعرضت ... لوامع يُطوى ريطُها و برودُها
على طرق عِند الأراكة ربّةٍ ... توازى شريم البحر وهو قعيدها

(المصدر السابق: ١٢٠)

البيئة البحرية

إنّ دراسة البيئة البرية الصامته والمتحركة كشفت لنا بأن الأثر الفنى فى صورته وجوهره للأثر الطبيعى تصوير رائع، وأن كل شاعرٍ استمد منه لوحاته المؤثرة، وهنا نرى الشعراء قد صوروا لنا البيئة البحرية بكل فكر ثاقب، فكلّ من امرئ القيس والمثقب العبدى وطرفة والمرّقش، قد صوروا لنا تصاوير جميلة عن البحر فمنها القصيدة النونية للمثقب العبدى والتى فيها حديث جميل عن صناعة السفن وحركتها اللينة السريعة فى الماء مشبها الضعائن بها قائلاً:

وهنّ كذلک حين قطعن فَلْجاً ... كأنَّ حمولَهُنَّ على سفينِ
يُشبَّهنَ السَّفينَ وهُنَّ بُختٌ ... عُراضَاتُ الأباهِرِ وَالشُّؤونِ

كأنَّ الكُورَ والأنساعَ منها على قرواءَ ماهرةٍ دهينِ
يَشُقُّ الماءَ جُؤجُؤُهَا وَيعلو غواربَ كُلِّ ذِى حَدَبٍ بَطِينِ

(المصدر نفسه: ٢٤٤)

وهذا طرفة يصفُ جمله بالسفينة الكبرى التى تجرى على البحر قائلاً:

عدوليةٍ أو من سفينِ ابن يامِنٍ يجور بها الملاحُ طوراً ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قَسَمَ التُربَ المفائِلُ باليدِ

(التبريزى، ٢٠٠١م: ١٠٦)

وينفرد المسيب بن علس الضبعى فى تصوير البحارة وركوب البحر والغوص على اللؤلؤ، فقد وصف حكاية أربعة بحارة غامروا بحياتهم فى سبيل واحد، ورسم لنا فيها لوحة بارعة ومثيرة لحياتهم ومشاعرهم وقد وصف صاحبته بالجُمانة التى جاء بها أولئک الغواصين، قائلاً:

كجُمانة البحرى جاء بها غواصّها مِن لجَّة البحرِ
صلبُ الفؤاد رئيسُ أربعةٍ متخالفى الألوان والنجرِ
وَ غلت بهم سجحاءُ خادمةٌ تهوى بهم فى لجة البحر
حتى إذا ما ساءَ ظنّهم ومضى بهم شهر إلى شهرِ
ألقى مراسِيَه بِتهلُكةٍ ثبَّتَ مراسيها فما تجرى
فأصاب منيته فجاءَ بها صدفية كمضيئة الجمر
يُعطى بها ثمناً فيمنعها ويقول صاحبه، ألا تشرى
فتلکَ شِبهُ المالكية إذ طلعت ببهجتها من الخدر

(البغدادى، لاتا، ج١: ١٧٤)

فقد مثّل صاحبته المالكية بالجمانة وهو كرئيس البحارة الذى يريد اصطياد تلک الجمانة. أما حديث عبيد بن الأبرص فقد ساقه عن البيئة البحرية سياقاً آخر يلبّى رغبته وهدفه فى الافتخار بشعره وقدرته على اصطياد شوارده، فكان بهذا منفرداً من دون الشعراء الجاهلين، وظلّ كالمسيّب فى تفصيل صورة البحر إذ تتبع بحسّ الفنان الأصيل

لحركة السمک وقدرته على المناورة فى لجّ البحر، فحياته فى الماء وموته بخروجه منه، وحياة عبيد تكمن فى الشعر، وينتهى فى قصيدته إلى تصوير طريف لدرعه الملساء اللامعة الصافية، القوية النسج، الخالية من الشوائب، فيجعل صورة الحوت لها شبها منشداً بذلک:

سلِ الشعراء هل سبحوا كسبحى ... بحور الشعر أو غاصوا مغاصى
لسانى بالنثير وبالقوافى ... وبالأسجاع أمهرُ فِى الغياص
من الحوتِ الذى فى لجّ بحرٍ ... يُجيدُ السّبح فى لُجَج المغاصِ
بنات الماء ليس لها حياةٌ ... إذا أخرجتهنَّ من المداصِ
إذا قبضت عليه الكف حيناً ... تناعص تحتها أىّ انتعاصِ
وباصَ ولاصَ مِن ملصٍ مِلاصٍ ... وحوتُ البحرِ أسودُ ذو ملاصِ
كلون الماءِ أسودُ ذو قشورٍ ... نُسِجنَ تلاحُمَ السّردِ الدِلاصِ

(الأبرص، لاتا: ٧۶)

النتيجة

إن مشاهد البيئة الطبيعية فى القصيدة الجاهلية لها خصائص الشعر الجاهلى بسماته الواقعية والحسية وتبرز ظاهرة النجعة والرحيل بوضوح فى أشعارهم فنحن لانشک فى أنَّ الشعراء خلدوا للطبيعة وتأثروا بها وتمثلوها فى ذواتهم واختزنوها صوراً مؤثرة، فتغنوا بها، فجاءت قصائدهم منسجمة مع أغراضهم فى أثر فنى ممتع ومؤثر يحمل عظمة التجربة الواقعية وينطوى على دلالات زمينة ومكانية ونفسية وفكرية.

فشعراء الجاهلية تغنّوا بالبادية فلاةً وسهلاً وجبلاً، كما قال امرؤالقيس:

كأنّ ثبيراً فى عرانين وبله ... كبيرُ أناسٍ فى بجاد مُزَمّلِ

(شيخو، لاتا، ج١: ٣٧)

ولما استقروا فى منطقتهم أخلصوا لها فنقلوها فى الإطار المدنى الجديد الذى انتهوا إليه فصبغت حياتهم وفنهم بأساليب خاصة.

فإننا نرى مشاهد البيئة الطبيعية لم تكن أكثر إبداعاً من البيئة البرية والجوية فهم وصفوا السفن وركوب البحر. فالبيئة الطبيعية تعدّ شكلاً من أشكال التعلّق بالوطن من الأرض والقبيلة ونظام حياتها، فلذلک أصحبت البيئة الطبيعية فى الشعر الجاهلى فطرية ومجتمعة وإن تباينت فى بعض صفاتها وطرائق تناولها، وقد أخلص أبناء كلّ بيئة لبيئتهم دون أن يهملوا ما اختزنوه من صور البيئات العربية التى عاشوا بها أو انتقلوا منها.

المصادر والمراجع

ابن أبى الصلت، أمية. لاتا. *ديوان أمية بن أبى الصلت*. تحقيق عبدالحفيظ السطلى. دمشق: مكتبة أطلس.

ابن العبد، طرفة. ١٩٧٥م. *ديوان طرفة*. تحقيق درية الخطيب. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة.

ابن حجر، أوس. لاتا. *ديوان أوس*. تحقيق محمديوسف نجم. بيروت: دار صادر.

ابن عبدربه. ١٩٦٥م. *العقد الفريد*. تحقيق أحمد أمين. بيروت: دار الكتاب العربى.

ابن قتيبه. ١٣٥٦ هـ . ق. *الأنواء فى مواسم العرب*. بغداد: دائرة المعارف اللقمانية.

ابن كلثوم، عمرو. ١٩٩١م. *ديوان عمروبن كلثوم*. تحقيق على أبوزيد. دمشق: دار سعدالدين.

أحمد فراج، عبدالستار. لاتا. *ديوان أشعار الهذليين*. القاهرة: مكتبة دارالعروبة.

الأصمعى. ١٩٦٤م. *الأصمعيات*. تحقيق أحمد محمد شاكر. مصر: دارالمعارف.

الأعشى. ١٩٩٢م. *ديوان الأعشى*. تحقيق حنا نصر. بيروت: دار الكتاب العربى.

امرؤالقيس. ١٩٩٠م. *ديوان امرئ القيس*. تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم. مصر: دارالمعارف.

التبريزى. ٢٠٠١م. *شرح القصائد العشر*. تحقيق مفيد قميحة. بيروت: مكتبة الهلال.

الجاحظ، عمرو بن بحر. لاتا. *البيان والتبيين*. تحقيق عبدالسلام هارون. بيروت: دارالكتب العلمية.

الجمحى، محمد بن سلاّم. ١٩١٢م. *طبقات الشعراء*. القاهرة: لانا.

الحطيئة. ١٩٨٧ م. *ديوان الحطيئة*. تحقيق نعمان طه. القاهرة: مكتبة الخانجى.

الحموى، ياقوت. ١٩٧٧م. *معجم البلدان*. بيروت: دار الفكر.

الحوفى، أحمد محمد. ١٩٧٢م. *الحياة العربية من الشعر الجاهلى*. بيروت: دارالقلم.

الخنساء. ١٩٨٤م. *ديوان الخنساء*. تحقيق إبراهيم عوضين. مصر: مطبعة السعادة.

الشنفرى. ١٩٦١م. *ديوان الشنفرى*. تحقيق كلال حرب. دمشق: المطبعة المعبادية.

ـــــــ . ١٩٩٣م. *ديوان الشنفرى*. تحقيق عبدالعزيز الميمنى. بيروت: دارالكتب العلمية.

ضيف، شوقى. ١٩٧١م. *الأدب الجاهلى*. مصر: دار المعارف.

الطائى، حاتم. ١٩٩٠م. *ديوان شعر حاتم الطائى وأخباره*. تحقيق عادل سليمان. القاهرة: مكتبةالخانجى.

العوار، عادل. لاتا. *الشعر الجاهلى*. القاهرة: الدار القومية للطباعة.

فروخ، عمر. ١٩٨٤م. *تاريخ الأدب العربى*. بيروت: دار العلم للملايين.

القالى. لاتا. *الأمالى*. بيروت: دار الكتاب العربى.

القيروانى، ابن رشيق. ١٩٩٥م. *العمدة فى محاسن الشعر*. تحقيق محمد محيى الدين. مصر: مطبعة السعادة.

المثقب العبدى. ١٩٧١م. *ديوان المثقب العبدى*. تحقيق كامل الصيرفى. مصر: الشركة المصرية.

المصعب الزبيرى. ١٩٨٥م. *نسب قريش*. مصر: دار المعارف.

المفضل الضبى. ١٩٨٧م. *ديوان اختيارت المفضل*. تحقيق فخرالدين قباوة. بيروت: دارالكتب العلمية.

نصرت، عبدالرحمن. ١٩٨٢م. *الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى*. عمان: مكتبة العلوم.

النمربن تولب. لاتا. *ديوان النمر بن تولب*. تحقيق نورى حمودى. بغداد: مطبعة المعارف.

هبو، أحمد. ١٩٨٠م. *تاريخ العرب قبل الإسلام*. جامعة حلب: مديرية الكتب والمطبوعات.